الثورة
يومية سياسية

تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر

تشكيل .. الفنان الفطري طائر يغرد خارج سرب الحداثة..أبو صبحي التيناوي وخليل زغيب أنموذجاً

ثقافة
الاثنين 18-1-2016
أديب مخزوم

ثمة نقاط التقاء وافتراق يمكن التماسها، في خطوات الحديث عن الرسام الفطري الشعبي الدمشقي أبو صبحي التيناوي (1888-1973) والرسام الشعبي خليل زغيب (1911-1975- لبنان) وذلك لأن أعمال الأول،

وصلت إلى عواصم ومدن عالمية، ودخلت العديد من الصالات الباريسية، كما أنهما أخذا معاً شرعية الحضور على صفحات «الأوريان» من خلال كتابات الناقد اللبناني صلاح ستيتية، الذي لعب دوراً بارزاً منذ منتصف الخمسينات، في إعادة الاعتبار إلى الفنون الفطرية العربية، في مراحل بحثه عن النقاء التعبيري،الذي ظل خارج التصنيفات المدرسية،القادمة من تأملات التيارات التشكيلية الحديثة والمعاصرة ـ لما بعد الانطباعية والنيو انطباعية في مدرسة باريس.

ورغم أنهما ينتميان إلى مدرسة واحدة، فإن هناك فروقات شاسعة بينهما على الصعيد التقني، فلوحات خليل زغيب تتميز بدقتها وواقعيتها وتقليديتها، رغم عدم تقيدها بالنسب التشريحية وبقواعد المنظور، الذي يكاد يلتصق في أحيان كثيرة بسطح اللوحة، وهكذا تظهر أجوبة لتساؤلات كثيرة مكثفة وصارخة، في خطوات المقاربة والمباعدة بينهما، حول التوجهات والانتماءات الثقافية والجمالية. ويكفي أن نقارن بين طريقة معالجة كل منهما للعناصر والرموز حتى نواجه وبشكل مثير وملفت مدى التباعد ما بين لوحات الأول ولوحات الثاني، إلى حدود التناقض الصارخ، فأبو صبحي التيناوي كان يجنح في اتجاهه الشعبي نحو الاختزال، وإضفاء المزيد من اللمسات اللونية العفوية والفطرية، مؤكداً هواجس استمرارية اللوحة الشعبية بموضوعاتها المستمدة من القصص الشعبية (مثل عنترة وعبلة).

وعلى خلاف ذلك تبرز في لوحات خليل زغيب، ملامح تصويرية واقعية تتحاور وبشكل لافت ومباشر مع عناصر الطبيعة والعمارة والأشخاص وطائرات الورق وغيرها، وهو في ذلك يبدو على عكس أبو صبحي التيناوي، تماما، حيث كان يرسم بدقة تفصيلية متناهية، دون أن يترك أي فسحة أمام اندفاعات اللمسة العفوية، وكان يجنح نحو مظهر استعادة تقنيات الرسم الواقعي والتسجيلي، وكل ذلك بدقة أدائية مشحونة بالتفاصيل، وبمواكبة مظهر عودة الواقعية القصوى أو المفرطة.

وهكذا وصل خليل زغيب إلى الواقعية القصوى، وأظهر مقدرة فائقة في التقاط أدق التفاصيل، ولهذا فأعماله كانت تثير إعجاب ودهشة نسبة كبيرة من الجمهور، الذي يغرم وكما هو معروف، بالأعمال الكلاسيكية والواقعية، ويعتبر أن المعيار يكمن في مدى إمكانية النقل الحرفي لتشكيلات الواقع. ولهذا لم يكن يستطيع أن يرسم إلا بضع لوحات في الشهر أو في العام الواحد، بخلاف أبي صبحي التيناوي الذي كان يستطيع أن يرسم عدة لوحات في اليوم الواحد، إلا أنهما يلتقيان في نزعتهما الفطرية الشعبية، التي لها علاقة بثقافة الشارع وثقافة النخبة معاً، مؤكدين أن الفن ليس حكراً على جمهور الصالات الراقية فقط.

وأهمية أعمال أبي صبحي التيناوي، لا تكمن فقط باسترجاع الحكايات الشعبية، وانما في استعادتها لقيم تشكيلية وتقنية فطرية،حققت استمرارية، وسط التراكمات الثقافية، التي عرفتها فنون القرن العشرين، ويمكن القول: إن طريقة الرسم الفطري الشعبي, تأسست على أساليب ووسائل سبقت مجيء كبار الفنانين المحدثين في اوروبا بقرون, وبالتالي فأبو صبحي التيناوي كان يقدم في لوحاته, خلاصة بحوث خبرته التقنية وعلى الطريقة التقليدية, مبتعداً كل البعد, عن التأثيرات الفنية الاوروبية الحديثة, التي تركت تأثيراتها المباشرة والواضحة على أعمال مجمل أبناء جيله من الفنانين السوريين والعرب المحدثين.

هكذا تبرز الأسباب الموضوعية لاهتمام الاجانب بهذه الفنون العربية المتوارثة منذ قرون، وعلى سبيل المثال نستطيع ان نرى في الفن الفطري العربي, الاحصنة والجمال مرسومة بألوان رمزية كالأحمر والأصفر والازرق، وهذه التقاليد التصويرية استمرت في نتاج أبي صبحي التيناوي, ويمكننا القول: إن الانقلابات الفنية الحديثة, التي شهدتها باريس في نهاية القرن التاسع عشر (ولا سيما المدرسة الوحشية) استفادت الى حد بعيد من رمزية الالوان الفطرية العفوية، المجسدة في الرسوم الشعبية العربية.

وأبو صبحي التيناوي رسام دمشقي شعبي فطري شهير، استمد مواضيع لوحاته من حكايات عبلة وعنترة وابي زيد الهلالي والزير سالم وابطال القصص الشعبية الاخرى.

ويمكن القول: إن الرسم الفطري الشعبي, تأسس على اساليب وتقنيات سبقت مجيء كبار الفنانين المحدثين في أوروبا بقرون, وبالتالي فأبو صبحي التيناوي كان يقدم في لوحاته, خلاصة بحوثه التقنية وعلى الطريقة التقليدية, مبتعداً عن غير قصد, عن التأثيرات الفنية الاوروبية الحديثة, التي تركت تأثيراتها المباشرة والواضحة على أعمال مجمل أبناء جيله من الفنانين السوريين والعرب المحدثين.

فمن أبرز سمات الفنان الفطري، أنه لم يدرس الفن وهو لايلتفت، عن غير قصد، لما يجري حوله من تجارب فنية حديثة، وقد يكون أمياً أحياناً، ودون أي ثقافة فنية تذكر، ولهذا فهو يغرد خارج سرب الحداثة وحيداً، ويرسم دون أي تأثيرات تقنية أو تشكيلية، وعلى الطريقة التي كان يرسم بها الفنان الشعبي في الماضي.

وتفيد الاشارة الى أن كل انقلابات الفنية الحديثة, التي حدثت في باريس في نهاية القرن التاسع عشر (ولا سيما المدرسة الوحشية) استفادت الى حد بعيد من رمزية الالوان الفطرية العفوية المجسدة في الرسوم الشعبية العربية،التي عرفتها أجواء المقاهي والمسارح والصالونات الفسيحة منذ قرون، ولهذا فالأجانب يعجبون بالفن الفطري المحلي، ويحملون معهم، نماذج منه، أما حين يقفون أمام لوحة تشكيلية عربية حديثة، فيقولون هذه بضاعتنا ردت إلينا.

facebook.com/adib.makhzoum

E - mail: admin@thawra.com

مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ـ دمشق ـ سورية